مجلة المرابط

العدد : ١٩٩ الموافق في صفر ١٤١٩ هجري ١٩٩٨/٦ ميلادي

| عنوان المقال : خواطر حول ندوة الفقه الإسلامي والتطورات المعاصرة | بقلم : صلاح الدين بن إبراهيم |
|---|---|

**عقد مسجد الدعوة في باريس بتاريخ ١٤١٨/١٢/٢٨هـ ١٩٩٨/٤/٢٦م ندوة ثقافية تناولت موضوع " الفقه الإسلامي والتطورات المعاصرة " ، شارك فيها المستشرق الفرنسي المعروف جون بول شارناي ، والدكتور مراد هوفمان ، وكاتب هذه السطور ، المعبرة عن رأي الكاتب في أهم المحاور التي أثارتها الندوة ، من غير الدخول في تفاصيل ، وكان مسك ختام اللقاء كلمة للدكتور العربي الكشاط عميد مسجد الدعوة .**

**أولاً** : تعلمون أن الفكر الإسلامي المعاصر يتحرك في هذه المرحلة التاريخية ضمن دائرتين بينهما تقاطع وتداخل :

**الأولى : دائرة الحوار مع الذات :** لتحقيق هدفين :

١- التجديد في المضمون المعرفي .

٢- التغيير في الواقع .

وهذا يعني أن المسلمين يعترفون أن القرون القريبة منهم كانت مرحلة تراكم عوامل التخلف العقيدي ، والشعائري ، والأخلاقي ، والحياتي ؛ السياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد... ، وأن عملية التجديد ينبغي أن تعالج الواقع لتصحيحه وتثبيت العمل بما شرع الله تعالى ، وعملية التجديد والتغيير تطرح سؤالين كبيرين :

١- كيف نفهم الإسلام ؟

٢- كيف ننزل أحكامه على الواقع ؟

وليس مستغرباً - في ظروف هذه المرحلة - أن يكون هناك اختلاف في تحديد الجواب على هذين السؤالين ، لأن عملية التفكير تقوم على ثلاثة أسس :

**١- المعلومات السابقة .**

**٢- الواقع .**

**٣- القدرة على الربط بين المعلومات السابقة والواقع .**

ولا يخفى عليكم أن أي اختلاف في كمية المعلومات ، أو نوعيتها ، أو القدرة على الربط بين أجزائها ، يؤثر على الحكم النهائي ، وكذلك الأمر إذا اختلف أهل النظر في توصيف الواقع ، أو تباينت قدراتهم على الربط بين المعلومات السابقة والواقع .

**الثانية : دائرة الحوار مع الفكرة الغربية :** لأن الغرب - بامتداده الجغرافي وتعدد مدارسه الفكرية - هو الذي يصنع الأفكار ، ويرتب النظم ، ويضع الشرائع ، ويسوِّقها في أرجاء المعمورة ؛ فالفكرة الغربية تطرح تصورها عن الكون والحياة ، وعن الإنسان وغاية وجوده ، وكيف يحقق هذه الغاية ، ولا يغيب عنكم القدرات الهائلة التي تملكها مؤسسات القرار وتسخرها لنشر إفرازات المجتمعات الغربية .

وهناك موضوع مهم يؤثر على تحاور المسلمين مع الفكرة الغربية ، وأعني به : " الاستعمار " القديم والجديد ، فالغرب بالنسبة للمسلمين جاء بلادهم وهم في حالة ضعف وتخلف فاستعمر معظمها ، وأقام فيها أوضاعاً تتناقض مع الفكرة الإسلامية ، وهو ما يزال - حتى بعد خروجه العسكري - يقوم بدور الحارس على استمرار أسباب الضعف والتخلف والتبعية .

إن إفرازات الفكرة الغربية تطرح على المسلمين أسئلة ، مثل :

- كيف نفهم الغرب ؟
- ما يجوز أن نأخذ منه وما لا يجوز ؟
- كيف نحصن أنفسنا من تأثير غزوه الثقافي ؟ ... الخ .

والجواب على هذه الأسئلة وغيرها تؤثر فيه عوامل كثيرة ، وقد أشرت عند الحديث عن " عملية التفكير " إلى أهمها .

❋ ❋ ❋

**ثانياً** : وتأسيساً على ما سبق أود أن أشير إلى خطورة موضوع " المصطلحات " عند دراسة العالم الإسلامي اليوم ، أو الكلام في قضايا الفقه الإسلامي ، فقد جرت العادة في دوائر الغرب ، عندما يتحدثون عن الحركة العلمية والفكرية في العالم الإسلامي ، أن يقسموا الناس إلى ثلاثة أقسام :

**١- التقليديون :** ويعنون بهم أولئك الذين يرفضون إعادة النظر في النتائج التي توصل إليها العلماء السابقون ، ويرفضون كل ما يغايرها من عطاء العصر . وهذا الاصطلاح يحمل في طياته الغمز بمفهوم هذا التيار من المسلمين ، الذي يعنون به : السلفيين والمقلدة .

والحق أن هذا التيار يعترف بضرورة الاجتهاد إذا توفر في الأمة المجتهدون ، ويعترف بأن القرآن والسنة هما المرجع في التشريع ، وأن كل واحد من علماء الأمة يؤخذ من كلامه ويرد . صحيح أن قسماً من هذا التيار غير مقتنع بالأهلية العلمية لعدد من المتصدين للفتوى في القضايا المعاصرة ، ومع ذلك فإن الذين

يشكلون جهاز التفكير في هذا التيار يتحاورون في منهج الفهم للإسلام وللواقع ، ويستنبطون آراء تأخذ بها معظم فصائل التجديد في الحركة الإسلامية المعاصرة .

بل أجزم بأن تيار " المنهج السلفي " الذي يدخل تغير الزمان أو المكان كعامل يؤثر في تغيُّر الفتوى ، ينمو من حيث العدد والنوعية ، وهؤلاء هم الذين يحملون أهلية التجديد المحافظ على منهج الفهم الإسلامي من الناحية الفقهية .

ثم إن تيار السلفيين والمقلدة يمارس الاجتهاد ، لأنه ضرورة ، ويعمل على ترسيخ فكرة : " **الاجتهاد الجماعي** " . وإن كان يؤخذ على فريق من السلفيين أو المقلدة تمسكهم بالتراث الإسلامي ورفضهم الاجتهاد المعاصر لاعتبارات تتعلق بمن يتصدى لعملية الاجتهاد الفقهي كما أسلفت ، وهذا يعني أن التيار ليس حالة واحدة ، ففي داخله يلاحظ اختلاف التنوع بوضوح .

٢- **الإصلاحيون** : وهم الذين يدعون إلى إصلاح منهج فهم الإسلام ، وإلى الأخذ بالصالح من عطاء العصر ، وهؤلاء ليسوا حالة واحدة . ففيهم من يقترب من السلفيين في المنهج والنتائج ، ومنهم من يبتعد منهجاً ونتائجاً . ومنهم فريق يأخذ من هنا وهناك...

٣- **العلمانيون أو تيار الحداثة** : ويعنون بهم أولئك الذين لا يرون الدين مصدر تشريع واجب الاتباع ، وأنه من الخير فصله عن الحياة .

فهؤلاء سواء كانت أصولهم الفكرية ليبرالية أو ماركسية يقفون ابتداء على أرض غير إسلامية ، وبالتالي فإن ما يتوصلون إليه لا يمثل تطوراً أو تجديداً في الفقه الإسلامي ، بل هم نسخة من الفكرة الغربية تحمل كلمات وأسماء إسلامية .

إن هذا التقسيم - أو أي تقسيم آخر قريب منه - يحدث إرباكاً لدى أولئك الذين حظهم من المعرفة قليل ، لأنه ينظر إلى هؤلاء جميعاً على أنهم إفراز الفكرة الإسلامية ، وهذا غير صحيح !

❋ ❋ ❋

**ثالثاً** : وبناء على ما ذكرته آنفاً أقوال :

إن الغرب يفرض على المسلمين تحديات ويثير في حياتهم أسئلة كثيرة ، بما ينتجه ويُسوِّقه من أفكار وأنظمة وعلاقات وسلوكيات... الخ .

فإذا قال مسلم " هذا مرفوض " كان " تقليدياً ، متعصباً ، متشدداً " إلى آخر مصطلحات المحاصرة

والتشويه والتنفير .

ومَنْ قَبِلَ كان " متنوراً ، معاصراً ، متسامحاً... " إلى آخر مصطلحات الثناء والتشجيع على السير في هذا الطريق !!

ومن قال نرفض هذا ونقبل ذاك كان " معتدلاً ، ليناً ، ... " إلى آخر كلمات المديح الحذر !!

وهنا أود أن أقول :

إن مصلحة المسلمين ، ومصلحة الغرب ، ومصلحة بقية سكان المعمورة ، تكمن في أن يجدد المسلمون منهج فهم الإسلام ليفهموه كما هو في القرآن والسنة ، من غير استقباله بمفاهيم مغايرة عن الكون والحياة والإنسان ، عندئذ تكون النتائج التي يتوصل إليها المجتهدون فقهاً إسلامياً...

أما إذا هجمت فكرة غريبة على عقول مجموعة من المسلمين فاستحسنوها ، لأنهم غير قادرين على كشف غربتها ، ثم جاء هؤلاء إلى نصوص الإسلام فأوّلوها لتنسجم مع ما رأوه صواباً... فهذا لا يعبر عن الإسلام الموحى به من عند الله تعالى .

ولا يخفى عليكم أن الفتن السياسية والثقافية (المعرفية) حين تعصف بأمة فإنها تبلبل المنظومة الفكرية لدى فريق ، وإذا بهم يضعون مقدمات تلزمهم بنتائج تفرض عليهم طريقة فهم للنصوص ، وأسلوباً في الجمع بين الأدلة التي تبحث موضوعاً واحداً . بل إن الفتن الثقافية تحسن الفكرة القادمة من خارج الفكرة افسلامية ، وتدفع المستحسن إلى تأويل النصوص حتى يستقيم - بزعم المتأولين - الفهم الصحيح للإسلام .

وهذا التصرف يتم تحت عناوين براقة ، ولنأخذ مثلاً " فتنة الفلسفة الإغريقية " فعندما استحسنها فريق من المسلمين ، فرضوا قواعدها على المصادر الإسلامية ( القرآن والسنة ) فما وافقها من القرآن هللوا له ، وما خالفها عادوا عليه بالتأويل ، أما السنة فإن كانت متواترة قبلوها وعاملوها معاملة القرآن ، وإن كانت صحيحة وعارضت مقررات الفلسفة رفضوها بحجة أنها ظنية ، وأنها ليست حجة في العقائد ، وإنما مجالها الأحكام ، وهذا كله تم تحت عنوان " العقليات " !!

وبما أن الغرب اليوم يقهر المسلمين ، ويؤزمهم فكرياً وسياسياً ، واقتصادياً ، واجتماعياً ، ... إلخ ، فإنه يربك نمو القدرة الفقهية الأصلية ، ويدفع كثيرين إلى الاهتمام بالمآسي التي يُواجَهون بها ، مثل ( الحرب والسلم في ظل الاستعمار وفرض التبعية ) وهذا يقودنا إلى الخاطرة الآتية :

❋ ❋ ❋

**رابعاً** : إن العمل الفقهي ليس معزولاً عن واقع الأمة ، والمسلمون - على الرغم من العقبات الداخلية والخارجية - يحاولون إدراك المتغيرات ، ومواجهة التحديات ، واستنباط الحلول المنبثقة من ثقافتهم الإسلامية .

وقد تصدت الحركة الإسلامية إلى إعادة النظر في عدد كبير من القضايا المعاصرة ، وحددت منها مواقف أصيلة تنبثق عنها تفريعات كثيرة ، وأضرب أمثلة من غير الدخول في التفاصيل :

**١- دور الرجل والمرأة في الحياة البشرية :** فقد قرر الفكر الإسلامي - من خلال نصوص القرآن والسنة - أن الرجل والمرأة نوعان لجنس واحد ، لهما خصائص مشتركة ، ومهمات متنوعة ، باعتبار أن " النساء شقائق الرجال " . وعلى هذا ينبغي أن تراعى دوائر الاختصاص بدقة بعيداً عن " الانضباع " بإفرازات الفكرة الغربية .

**٢- الحريات :** يصر الفكر الإسلامي على أن واقع المسلمين السياسي والاجتماعي والاقتصادي... الخ ، قد وقع فيه خلل كبير أثر على الحريات وفرض الظلم ، والظلمُ ظلمات ، ولذلك رفعت حركة التجديد صوتها داعية إلى مقاومة " **الفراعنة** " عنوان الطغيان السياسي و " **القوارين** " عنوان الجشع المالي ، فالحركة الإسلامية تمثل " العارضة " الرافضة للظلم والداعية إلى التحرر .

**٣- الحرب والسلم :** أكدت الحركة الإسلامية أن الأصل في العلاقات البشرية هو " السلم " ولكن واقع البشرية يدل على أن امتلاك القوة الرادعة يساهم في توفير الأمن والسلم معاً . وبما أن الإسلام دين الفطرة ، فإنه حرض المسلمين على مواجهة عدوان المعتدين ، وهنا شنت دوائر الظلم الداخلي والخارجي حملة شعواء تتهم المسلمين - وهم الجانب المستضعف وفي حالة دفاع - بالدموية لأنهم يربون أجيالهم على " الجهاد " وأخذوا يثيرون الزوابع حول الجهاد الدفاعي والجهاد الهجومي ، مع أن الإسلام واضح في هذه القضايا .

**٤- قضايا الطب وغيره من العلوم :** فقد حددت شخصيات علمية ومؤسسات فقهية ما يقبل منها وما لا يجوز الأخذ به .

وهكذا ، فإن الفقه الإسلامي قادر على التعامل مع المتغيرات البشرية ، وهذا الفقه يؤكد على شمولية قضايا الإنسان ، ولا يحصر مهمته في الأحكام العملية ، ويعتبر فقهاء الإسلام أن " العقيدة " هي الفقه الأكبر ، وقد شغلت مسائلها جُلَّ جهود علماء الإسلام ومفكريه في هذا العصر ، وكان لجهودهم فوائد دعمت مناعة المسلمين ووضعت في أيديهم موازين يميزون بها بين الحق والباطل والصواب والخطأ .

❋ ❋ ❋

خامساً – وأخيراً ... فإننا على يقين من قدرة الفقه الإسلامي على صياغة الحلول المناسبة لكل القضايا الـــتي تمس الحياة البشرية ، وهو قادر على التعامل مع الواقع البشري في الحالة العادية ، وفي حالات الاضطراب ، ونأمل أن تسير حركة التجديد الإسلامي إلى نهايتها ، لأن في ذلك خيراً للبشرية جمعاء .